مقال مترجم

هذه الحكومة "الإسرائيلية" ليست حليفًا لنا

توماس فريدمان

مؤسسة النازعات

Anaziat

ذو القعدة

١٤٤٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

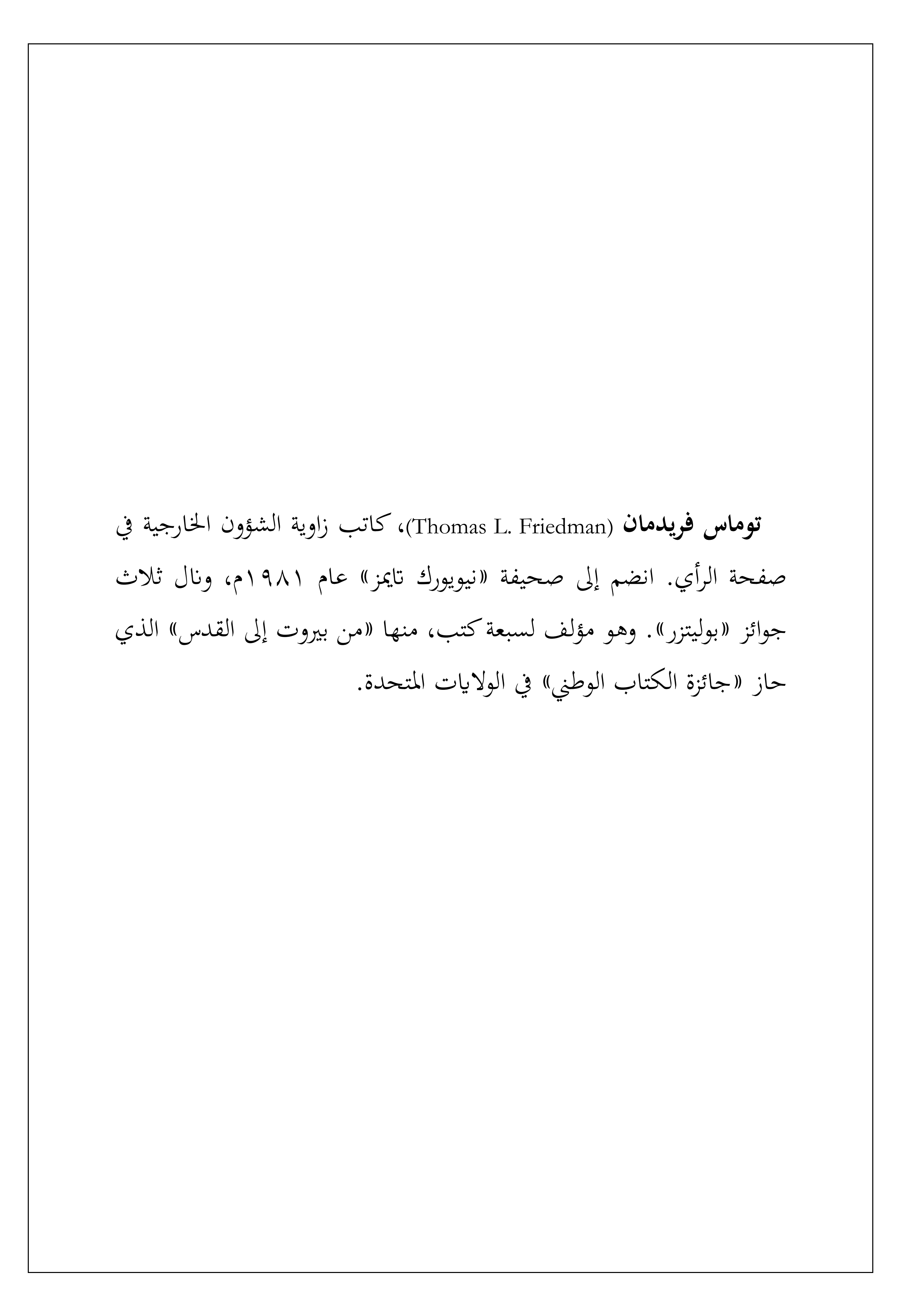
هذه الحكومة الإسرائيلية ليست حليفًا لنا

توماس فريدمان

[The New York Times]

النازعات

ذو القعدة ١٤٤٦



توماس فريدمان (Thomas L. Friedman)، كاتب زاوية الشؤون الخارجية في صفحة الرأي. انضم إلى صحيفة «نيويورك تايمز» عام ١٩٨١م، ونال ثلاث جوائز «بوليتزر». وهو مؤلف لسبعة كتب، منها «من بيروت إلى القدس» الذي حاز «جائزة الكتاب الوطني» في الولايات المتحدة.

فخامة الرئيس ترامب..

قلّما وجدتُ من مبادراتكم منذ تولّيكم سدّة الحكم ما أُقرّكم عليه أو أوافقكم فيه، إلا في ما يتعلق بالشرق الأوسط. وإنّ في عزمكم على زيارة المنطقة الأسبوع المقبل، ولقائكم بزعماء المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة وقطر، دون أن يكون لكم أدنى نية في لقاء رئيس الوزراء **بنيامين نتنياهو** في إسرائيل، ما يدل على أنكم قد بدأتم تُدركون حقيقةً بالغةَ الأهمية، وهي أنّ هذه الحكومة الإسرائيلية تسلك مسالك تتهدد المصالح العليا للولايات المتحدة في المنطقة، وأنّ نتنياهو ليس بصديق لنا.

بيدَ أنّ نتنياهو ظنّ أنه قادر على أن يتخذ منكم ألعوبة بيده، ولأجل ذلك أُعجبتُ بما أظهرتموه من استقلال الرأي في ما أجريتموه من مفاوضات مع «حماس» وإيران و«الحوثيين»، إذ أبَنتم له بوضوح أنه لا يملك عليكم سبيلًا، وأنكم لستم له مطية. وقد أصابه ذلك، ولا ريب، بالوجل.

وإني لا أشك في أنّ الشعب الإسرائيلي، في عامته، لا يزال يرى نفسه حليفًا راسخًا للشعب الأمريكي، وكذا العكس، لكنّ هذه الحكومة الإسرائيلية المتطرفة في قوميتها، الغارقة في نزعة ماشيحانية [مهدوية]، ليست من حلفاء أمريكا؛ ذلك لأنها أول حكومة في تاريخ إسرائيل لا يكون السلام مع مزيد من جيرانها العرب أولوية لها، ولا تنظر إلى ما يجلبه الأمن والتعايش من فوائد. إنما

أولويتها ضمُّ الضفة الغربية، وطردُ الفلسطينيين من غزة، وإعادةُ الاستيطان الإسرائيلي فيها.

إنّ فكرة أنّ لإسرائيل حكومة لم تعد تتصرف بأنها حليف لأمريكا، ولا ينبغي أن تُعدّ كذلك، لهِيَ فكرة صادمة، وجرعة مرّة عسيرة الهضم على أصدقاءِ إسرائيل في واشنطن، لكن لا مندوحة لهم عن تجرّعها؛ لأنّ حكومة نتنياهو، في سعيها وراء أهدافها المتطرفة، تقوض مصالحنا وتُضعفها. وإنّ امتناعكم عن السماح لنتنياهو بأن يطغى عليكم كما طغى على رؤساء أمريكيين سبقوكم، لَهُوَ أمرٌ يُحسب لكم ويُشاد به، بل هو ضرورة أيضًا، للدفاع عن البنيان الأمني الأمريكي الذي أقامه أسلافكم في هذه المنطقة.

لقد قامت بنية التحالف الراهن بين الولايات المتحدة والعرب وإسرائيل على يد **ريتشارد نيكسون** و**هنري كيسنجر** عقب «حرب تشرين» سنة ١٩٧٣م، وكان الغرض منها طرد روسيا من المنطقة وجعل أمريكا القوة العالمية المهيمنة فيها، وهو ما خدم مصالحنا الجيوسياسية والاقتصادية منذ ذلك الحين. وقد صاغت دبلوماسية نيكسون وكيسنجر اتفاقات «فصل القوات» سنة ١٩٧٤م بين إسرائيل وسورية ومصر، وكانت تلك الاتفاقات هي الأساس الذي بُنيت عليه معاهدة «كامب ديفيد» للسلام، ثم مهّدت «كامب ديفيد» الطريق إلى اتفاقات «أوسلو» للسلام. والنتيجة كانت هيمنة أمريكية على المنطقة، إلى

جانب حلفائها العرب وإسرائيل. لكنّ هذا البناء كله اعتمد، إلى حد كبير، على التزام أمريكي إسرائيلي بحلّ الدولتين بصيغة ما، وهو التزام سعيتم أنتم إلى ترسيخه في ولايتكم الأولى، بخطتكم التي اقترحت إقامة دولة فلسطينية في غزة والضفة الغربية إلى جانب إسرائيل، بشرط أن يوافق الفلسطينيون على الاعتراف بإسرائيل، ويقبلوا بأن تكون دولتهم منزوعة السلاح، لكنّ حكومة نتنياهو هذه، ما لبثت أن جعلت من ضمّ الضفة الغربية أولويةً لها منذ تسلّمها الحكم أواخر عام ٢٠٢٢م، أي قبل الغزو الوحشي الذي شنّته «حماس» في السابع من تشرين الأول ٢٠٢٣م مقدّمةً ذلك على بنية الأمن والسلام الأمريكية للمنطقة.

ظلت إدارة **بايدن** لمدة تقرب من عام تناشد نتنياهو أن يقوم بأمر واحد لمصلحة أمريكا وإسرائيل معًا، وهو أن يوافق على فتح حوار مع السلطة الفلسطينية بشأن حلّ الدولتين في يوم من الأيام، على أن تكون تلك السلطة قد أُصلح شأنها. وكان المقابل هو أن تُقدِم السعودية على تطبيع علاقاتها مع إسرائيل، وهو ما يمهّد السبيل لإقرار معاهدة أمنية أمريكية سعودية في الكونغرس توازن النفوذ الإيراني وتُقصي الصين عن المنطقة.

وقد أبى نتنياهو أن يستجيب لذلك؛ إذ إنّ المتطرفين من أنصار التفوق اليهودي في حكومته توعدوا بإسقاطها إن هو فعل، ونتنياهو، بما أنه يواجه

محاكمة في قضايا فساد متعددة، لم يكن يستطيع المجازفة بخسارة الحصانة التي يمنحها له منصب رئاسة الوزراء، والتي تمكّنه من إطالة أمد المحاكمة وتجنّب احتمال صدور حكم بالسجن عليه؛ فقدّم مصالحه الشخصية على مصالح إسرائيل وأمريكا. ولو تمّ تطبيع العلاقات بين إسرائيل والسعودية –وهي أهم دولة مسلمة– على أساس السعي لإيجاد حلّ الدولتين بالتعاون مع فلسطينيين معتدلين، لانفتح أمام الإسرائيليين باب العالم الإسلامي برمّته؛ سياحةً واستثمارًا وابتكارًا، ولساهم ذلك في تهدئة التوترات بين المسلمين واليهود في شتى أرجاء العالم، ولثبّت المكاسب الأمريكية في الشرق الأوسط، التي أطلقها نيكسون وكيسنجر، لعقدٍ آخر على الأقل.

ولكن، بعد أن ظل نتنياهو يماطل الجميع لعامين، يُقال إنّ الأمريكيين والسعوديين قد قرروا العدول عن إشراك إسرائيل في هذا الاتفاق، وذلك خسارة حقيقية للإسرائيليين وللشعب اليهودي بأسره. وقد أفادت وكالة «رويترز» يوم الخميس بأنّ «الولايات المتحدة لم تعد تشترط على السعودية تطبيع العلاقات مع إسرائيل للمضيّ قدمًا في مباحثات التعاون في مجال الطاقة النووية المدنية».

وها هو الأمر قد يزداد سوءًا؛ فنتنياهو يعدّ العدّة لغزو جديد على غزة، بخطة ترمي إلى حشر السكان الفلسطينيين هناك في زاوية ضيقة، يحدّها البحر

المتوسط من جهة، والحدود المصرية من الجهة الأخرى، بينما يُسرِع في ضمّ فعليّ للضفة الغربية، امتدادًا وسرعةً. وبفعله ذلك، فإنه يعرّض إسرائيل لمزيد من تهم ارتكاب جرائم حرب (ولا سيما قائد أركان الجيش الجديد، **إيال زمير** (Eyal Zamir))، وهي تهم سيتوقّع نتنياهو من إدارتكم أن تحميه منها.

ليس لي أدنى تعاطف مع حركة «حماس». فهي، في نظري، تنظيم سقيم، ألحق بالقضية الفلسطينية أذًى عظيمًا، وتتحمّل كِفلًا كبيرًا من المأساة الإنسانية التي تشهدها غزة اليوم. كان حريًّا بقيادة «حماس» أن تُفرج عن الرهائن وتغادر غزة منذ زمن بعيد، فتُسقط بذلك كل ذريعة تتذرع بها إسرائيل لاستئناف القتال، لكنّ خطة نتنياهو لإعادة غزو غزة ليست بهدف إقامة بديل معتدل عن «حماس» بقيادة السلطة الفلسطينية، بل ترمي لاحتلال عسكري إسرائيلي دائم، غايته المضمرة إكراه الفلسطينيين على الرحيل عن أرضهم. وتلك نُذُرُ كفاح لا يهدأ.. فيتنام على شاطئ البحر المتوسط.

وفي الخامس من أيار، وأثناء مؤتمر نظمته صحيفة «بِشفَع – B'Sheva» الدينية الصهيونية، تحدث **بتسلئيل سموتريتش** (Bezalel Smotrich) وزير المالية المتطرف، كأنما لا يُبالي بما تظنه أنت أو غيرك، فقال: «نحن نحتل غزة لنبقى فيها. لن يكون هناك دخول وخروج بعد اليوم». وسيُزاح السكان إلى بقعة تقل عن ربع مساحة القطاع.

وكما نبه الخبير العسكري في صحيفة «هآرِتس – Haaretz»، **عاموس هرئيل** (Amos Harel): «وبما أنّ الجيش سيحاول تقليل الخسائر في صفوفه، فإنّ محللين يتوقعون أن يستخدم قوة مفرطة على نحو خاص، مما سيؤدي إلى دمار واسع لِما تبقّى من البنية التحتية المدنية في غزة. إنّ تهجير السكان إلى مناطق المخيمات الإنسانية، مقرونًا بالنقص المتواصل في الغذاء والدواء، قد يفضي إلى مزيد من الوفيات الجماعية في صفوف المدنيين... وقد يُواجه مزيد من القادة الإسرائيليين وضباط الجيش دعاوى قانونية شخصية ضدهم».

وفي الحقيقة، فإنّ تنفيذ هذه الاستراتيجية قد لا يجرّ فقط مزيدًا من الاتهامات بارتكاب جرائم حرب ضد إسرائيل، بل من المحتم أنه سيهدد استقرار الأردن واستقرار مصر أيضًا. وهاتان الدولتان هما ركنا البنيان الحليف لأمريكا في الشرق الأوسط، وكلتاهما تخشيان أن يكون نتنياهو يخطط لتهجير الفلسطينيين من غزة والضفة الغربية إلى أراضيهما، وهو ما من شأنه أن يثير اضطرابات تتجاوز حدودهما، حتى لو لم يتحرّك الفلسطينيون أنفسهم إلى ذلك. وهذا يُلحق بالولايات المتحدة ضررًا من وجوهٍ أخرى؛ فكما قال لي **هانس فيخسل** (Hans Wechsel)، المستشار السياسي السابق للقيادة المركزية الأمريكية: «كلما بدا مستقبل الفلسطينيين أكثر بؤسًا وانسدادًا، قلّ استعداد المنطقة للمضي في مسار التكامل الأمني الأمريكي العربي الإسرائيلي، وهو

المسار الذي كان من شأنه أن يثبّت مكاسب استراتيجية طويلة الأمد ضد إيران والصين، دون حاجة لوجود عسكري أمريكي واسع في المنطقة للمحافظة عليه».

وفي ما يتعلق بالشرق الأوسط، فإنّ لديك، سيادة الرئيس، نزعة استقلالية رشيدة. فاتبعها. وإلا فعليك أن تتهيّأ لحقيقة تلوح في الأفق: أنّ أحفادك من اليهود سيكونون أول جيل من أطفال اليهود ينشأ في عالم تُعدّ فيه الدولة اليهودية دولة منبوذة.

وسأختم بكلمات جاءت في افتتاحية صحيفة «هآرتس» بتاريخ ٧ أيار: «في يوم الثلاثاء، قتلت القوات الجوية الإسرائيلية تسعة أطفال، أعمارهم بين الثالثة والرابعة عشرة... وقال الجيش الإسرائيلي إنّ الهدف كان «مركز قيادة وتحكم تابع «لحماس»»، وإنه «اتّخذت إجراءات لتقليل احتمال إصابة المدنيين غير المتورطين»... بإمكاننا أن نستمر في تجاهل عدد الفلسطينيين الذين قُتلوا في القطاع –أكثر من اثنين وخمسين ألفًا، بينهم نحو ثمانية عشر ألف طفل– وأن نشكك في صدقية هذه الأرقام، وأن نستخدم كل آليات القمع، والإنكار، والبلادة، والتغافل، والتطبيع، والتسويغ. لكنّ لا شيء من ذلك سيُغيّر الحقيقة المُرّة: لقد قتلتهم إسرائيل. بأيدينا نحن. فلا يجوز أن نصرف أبصارنا. لا بد أن نستيقظ ونصرخ بأعلى صوت: أوقفوا الحرب».